

تاريخ القبول: 2023/01/17

تاريخ الإرسال: 2022/02/03

تاريخ النشر: 2023/06/03

سيرورة شعر النَّابغة الدَّيبانيّ

Ennabigha Eddoubiani's poetry continuity

ط/د: سارة مزيان¹، أ/د: حواس بري²جامعة الجزائر 2 (الجزائر)، sara.meziane@univ-alger2.dzجامعة الجزائر 2 (الجزائر)، ibnberri@yahoo.fr

الملخص:

يتناول هذا البحث بعض أبيات النَّابغة الدَّيبانيّ المتَّسمة بالسيرورة الشعريّة، إذ عرفت شهرة واسعة امتدّت إلى عصور لاحقة لعصره، فتداولتها كتب الأدب والتّراجم والنّقد واللغة؛ وتهدف هذه الدّراسة إلى رصد مفهوم سيرورة الشّعر ومعاييرها، ومن ثمّ البحث في مسوّغات كينونتها في شعر النَّابغة وذلك في بعض الأبيات من شعره على سبيل الاستشهاد.

شعر النَّابغة ذو خصائص تتعلّق بجودة اللفظ والمعنى ووضوح الصّورة، مناسب للتمثّل به في مختلف المواضيع، فكانت عديد الأبيات منه ذات سيرورة وشهرة.

الكلمات المفتاحية: سيرورة الشّعر؛ النَّابغة الدَّيبانيّ؛ النّقد؛ الأدب.

Abstract:

This research addresses Ennabigha Eddoubiani's verses characterizing with the poetic continuity. His verses were so famous, and they extended over the pursuing ages. They were transmitted through literature, biographies, criticism, and language. This study aims at finding the concept of poetry

continuity and its standards, then looking at the reasons of existence within Ennabigha's poetry in some of his verses, as an example.

Ennabigha's poetry has features related to utterance and sense quality as well as the image clarity. It's appropriate as an example in various topics. Several verses are characterized with continuity and fame.

Keywords: Poetry continuity; Ennabigha Eddoubiani; criticism; literature.

المؤلف المرسل: سارة مزيان، SARA.MEZIANE@UNIV-ALGER2.DZ

1. مقدمة:

احتلّ الشّعر المكانة الكبرى في حياة العرب منذ الجاهليّة؛ فكان ديوانهم الذي إليه يحتكمون وبه يعتزّون، وكان الشّاعر يرفع قومه بفخر، ويضع أعداهم بهجاء، ويمدح لنيل العطاء، ويتغرّل بالمحبيب فيظهر الجانب الرقيق لابن الصّحراء. وقد حُفظت القصائد والأشعار عبر روايات الرّواة وتداول النّاس لها واحتفائهم بها، وذكر الأدباء والنّقاد لها ضمن مصادر العربيّة المختلفة، عبر قضايا ومواضيع تنوّعت بين أدبٍ ونقدٍ وبلاغةٍ وعلوم لغة وتراجم... وقد تعدّد ورود تلك الأبيات وتكرّر في كثير من الأحيان ما بين تنويه بجودتها، أو ذكر لخصائصها وما ميّزها عن غيرها، واستشهاداً بها لتضمّنها الحكمة والفائدة، فكان من خصائص الشّعر العربيّ تواتره ضمن المصادر وتداوله بين النّاس.

ومن شعراء الجاهليّة الذين سار شعرهم النّابغة الذّبباني، الذي امتدّت شهرته لتصل إلى عصور لاحقة حتّى من خلالها هذا الشّاعر مكانة لم ينازعه فيها أحدٌ من الشّعراء. إذ تداولت مصادر العربيّة شعره في مختلف الأغراض، فكان حيّاً باللسنة النّاس حاضراً في الذاكرة العربيّة؛ وقد قيل في سبب تقدّم شعره أنّه "يكتفى

بالبَيْت الواحد منه، أو بنصف بيتٍ أو بربع بيتٍ"، ولعلَّ ذلك لما يتضمَّنه من معايير جودة جعلته يحظى بسيرورة حَفِظَت للشَّاعر وصيته بين الشَّعراء.

وبناء على ما سبق نسعى في هذا المقال إلى تبيان مفهوم سيرورة الشَّعر من منطلق نقديٍّ وأدبيٍّ عبر آراء وومضات وردت عن هذه القضية في مختلف المصادر العربيَّة، وعرض لأهمِّ المعايير التي تجعل من الشَّعر سائراً مشهوراً، ثمَّ البحث عن أشهر أبيات النَّابغة التي اتَّسمت بهذه الخاصيَّة، وإظهار مسوِّغات هذه القضية التي جعلت منها سائرة ومُتداولةً.

2. مفهوم سيرورة الشَّعر:

تُعَدَّ السيرورة في الشَّعر العربيِّ من القضايا التي تطرَّق إليها النقاد والدارسون في النِّقد القديم، إلَّا أنَّ اهتمامهم ذاك لم يكن وفق منهج تأصيلي لمفهومها ومعاييرها، فنجدها متناثرة في كتبهم، ترد في معرض حديثهم عن أحسن الأبيات لشاعرٍ ما وأشهرها وأبقاها سيراً على الألسن وذكرًا بين النَّاس. وقد جعل ابن رشيق باباً لسيرورة الشَّعر في كتابه "العمدة"، إذ نجده قد تحدَّث في هذا الباب عن أهمِّ الشَّعراء الذين سارَ شعرهم، وكان لأشعارهم الحظُّ في السيرورة والحفظ؛ ممَّا يعزِّز أهميَّة القضية عند نقادنا القدامى ويثبت حضورها في مؤلَّفاتهم. ومن هنا نأتي إلى تبيان مفهوم هذا المصطلح وفق ما جاء في المعاجم، وأمَّهات الكتب الأدبيَّة والنقديَّة.

1.2 مفهوم السيرورة لغةً: يرد مصطلح السيرورة في المعاجم اللغويَّة العربيَّة

تحت الجذر الثَّلَاثيَّ (سير)، والسير: الذَّهاب؛ سار يسير سيرا ومسيراً وتسياراً ومسيره وسيرورة؛ وسار الشَّيء وسرته، فعمَّ وسار الكلام والمثل في النَّاس: شاع. ويقال هذا مثل سائر؛ وقد سِرَّ فلان أمثالا سائراً¹، فالسير الانتشار والشُّيوع. و"سير: أصل يدل على مضي وجريان"²، فالسيرورة إذن اسم مشتقٌّ من مصدر يدلُّ على الحركة

والتنقل والجريان، وقد انتقل للدلالة على ما يسير ذكره بين الناس من قول مأثور أو مثل مشهور.

2.2 مفهوم السيرة اصطلاحاً: ورد مصطلح "السيرة" و"الأبيات السائرة"

عند النقاد القدامى وبعض الشعراء بتسميات مختلفة، ضمن ملاحظات نقدية موجزة، نستخلص منها المفهوم الاصطلاحي.

أورد ابن سلام الجمحي - (ت231هـ) - مصطلح (البيت المقلد)، والذي عرّفه بقوله: "البيت المستعني بنفسه المشهور الذي يُضرب به المثل"³، أي أنّ البيت المقلد يسير دون قصيدته ويستقلّ عنها، فيُعرف صاحبه به ويُضرب به المثل في جودة الشعر أو أفضليته في مجاله، وقد جعل الجمحي من الأبيات المشهورة معياراً للمفاضلة بين الشعراء؛ لأنها تُظهر كما يرى "مقدرة الشاعر الفائقة في صناعة الأبيات المستعنية بأنفسها الجارية مجرى المثل"⁴ وفي السياق ذاته وظّف ابن المعتز - (ت296هـ) - في طبقاته تسمية (القلائد) للدلالة على الأبيات السائرة، فالمقلّادات من الشعر هي "البواقي على الدهر"⁵، أي أنها الأشعار المحفوظة الباقية التي تتناقلها الألسن لنفساتها وجودتها، فنجد في كتابه الأبيات للشعراء الذين أورد أخبارهم يصفها بـ"الأبيات السائرة في الأرض المشهورة في الآفاق"⁶ فوصف الأبيات المقلّدة بالشهرة والبقاء على الدهر يُجليّ تميزها بالسيرة.

ويصف ابن خالويه - (ت370هـ) - الأبيات (المقلّدة) "بالطنانة المستحسنة"⁷، ويحيلنا وصفه لها بالطنانة إلى معنى "كثرة الكلام والتّصويت"⁸، فهو يشبّها بصدى الصوت المتكرّر الذي يعلق بالآذان، كما يشبّها بالإبل التي تهوم في الآفاق إذا طنّت فيقال: "طنّت بكرات لي في البرية إذا هامت"⁹. ويقال أيضاً: "طنّت في العود شطيّة"¹⁰، أي أنّ البيت المقلّد يستقلّ عن قصيدته ويخرج عنها وينفصل فيشيع ذكره في كلّ مكان، فأخذ البيت المقلّد من هذه الصّفات كناية عن

تعلّقه بالأذهان وانتشاره وسيرورته في كل مكان لاستحسان النَّاس له، وبهذا نرى أنَّ هناك علاقة بين البيت المقلّد والسيرورة، ويمكن أن نعتبره مصطلحا مرادفا لها إذ تتقاطع مفاهيمهما في الشّهرة والانتشار والذّيع بين النَّاس.

ومن المصطلحات التي تشير إلى سيرورة الأبيات وشهرتها (الأوابد) وهي عند الجاحظ-(ت255هـ)- من بيوت الشّعـر¹¹ إذ أورد في كتابه البيان والتبيين عدّة أشعار "تصلح للرواية والمذاكرة"¹²، واعتبرها أبياتا نادرة، خاصّة وإن قلّت فيها الأمثال وابتعدت عن التّكلف، فإنّها تسير في الآفاق¹³، وأوابد الشّعـر هي "التي لا تُشاكل جودة"¹⁴، وقد "سمّيت بذلك لبقائها على الأبد"¹⁵. فربط الجاحظ السّيرورة بالأبيات النّادرة في غرضها أو موضوعها، وهي عنده ذات جودة وطبع، فجعلها الأحقّ بالانتشار والشّهرة، وبالتالي فإنّ الأوابد هي أبيات نادرة سائرة.

كما عرّف ابن رشيـق-(ت456هـ)- الأوابد بأنّها "الأبيات السّائرة كالأمثال، وأكثر ما تستعمل الأوابد في الهجاء"¹⁶، فجعلها هو الآخر مرتبطة بالسّيرورة كونها تنتشر وتجرى مجرى الأمثال من جهة، ومن جهة أخرى أنّها تدوم لارتباطها بالهجاء الذي يبقى ملازما للمهجوّ ومتابعا له. وقد شاع استعمال هذا المصطلح الدّال على الأبيات السّائرة المشهورة عند عديد الشّعراء، من بينهم مزّرد بن ضرار¹⁷ في قوله:¹⁸

فَقَدْ عِلْمُوا فِي سَالِفِ الدَّهْرِ أَنَّي * مِعَنُ إِذَا جَدَّ الْجِرَاءُ وَنَابِلُ
زَعِيمٌ لِمَنْ قَادَفَتْهُ بِأَوَابِدِ * يُعْنِي بِهَا السَّارِي وَتُحْدِي الرَّوَّاجِلُ
مُذَكَّرَةٌ تُلْقَى كَثِيرًا رَوَائِهَا * ضَوَّاحٍ، لَهَا فِي كُلِّ أَرْضٍ أَرَامِلُ
تُكْرَفُ فَمَا تَزْدَادُ إِلَّا اسْتِتَارَةً * إِذَا زَارَتْ الشَّعْرَ الشَّفَافُ الْعَوَامِلُ
فَمَنْ أَرْمَاهُ مِنْهَا بَبِيْتٍ يُلْحَ بِهِ * كَشَامَةٍ وَجْهِ، لَيْسَ لِلشَّامِ غَاسِلُ

فهو يصف أبياته الأوابد بأنها ممّا يُتَغْنَى ويحدو به السّائرون رواجلهم، فيتناقلها الرّواة وتلقّى قبولا في كلّ مكان وعلى كلّ لسان، بل وتزداد شهرة كلّما تناقلتها الشّفاة، وهي باقية لصيقة بمن قبلت فيه كشامة الوجه.

وثأتي تسمية (الشّروود) و(الشّوارد) مرادفة للسّيرورة، فيقال: قافية شروود، سائرة في البلاد تشرد كما يشرد البعير، وقصيدة عائرة: سائرة¹⁹، ونجد ابن رشيق يربط بين مفهوم الشّارد والسّائر؛ وذلك في قوله: "مثلّ شروود وشارد أي سائر لا يرد، وزعم قوم أنّ الشّروود ما لم يكن له نظير كالشّاذ والنّادر"²⁰، فالشّارد هنا أيضا جاء بمعنى البيت السّائر.

كما نجد في الشّعْر وصفاً للأبيات السّائرة بالشّوارد، فنجد الشّاعر الأموي "جرير"؛ يشبّه قصائده بالإبل المتقلّبة مع الرّكب فهي سائرة ترد وتقد من مكان إلى آخر، حيث يقول:²¹

وجَهَّزْتُ فِي الْأَفَاقِ كُلَّ قَصِيدَةٍ * شَرُودٍ وَرُودٍ كُلِّ رَكْبٍ تَنَازِعُ
يَجْرُنَ إِلَى نَجْرَانٍ مَنْ كَانَ دُونَهُ * وَيَظْهَرُنَ فِي نَجْدٍ وَهْنٌ صَوَادِعُ
تَعَرَّضَ أُمَثَالُ الْقَوَافِي كَأَنَّهَا * نَجَائِبُ تَعْلُو مَزِيدًا فَتُطَالِعُ

ويوظف القاضي الجرجاني-(ت366هـ)- لفظة (الأفرد) للدلالة على الأبيات السّائرة وذلك في قوله "وهذه أفراد أبيات منها أمثال سائرة، ومنها معاني مستوفاة"²² فيقصد أنّ البيت الفرد إمّا أن يتضمّن مثلاً سائراً أو يكون ذا معنى تام مستغني بنفسه، و ذلك لا يكون إلّا في البيت المستقلّ القائم بذاته، ويوضح ذلك في قوله "لم نجد في أخواتها، و جارات جنبها ما يصلح لمصاحبتها."²³

من خلال ما سبق نستنتج أنّ مفهوم السّيرورة عند النّقاد والشّعراء كان متداولاً منذ القدم سواء ضمن مصادر اللغة أو الأدب أو النّقد، ممّا يُعزّز حضورها كقضية لها خصائصها وأصولها، وإن اختلفت تسمياتها وتنوّعت وتناثر الحديث عنها

بين الكتب، إلّا أننا لاحظنا أنها تصبّ في معنى واحد نُلخّصه في قولنا: إنّ (السيرورة) ميزةٌ وخاصيّة في الشّعْر؛ تدلّ على تلك الأبيات المشهورة التي تناقلها الرّواة والدارسون ثمّ النّاس فيما بينهم، وهذا لما تحمله من خصائص جعلتها تسير وتنتشر دون قصائدها، وتتفوّق على نظائرها من الأبيات، فكانت بذلك سيرورة الشّعْر ميزة للشّاعر وشعره ومعيّاراً لأفضليّته وتقدّمه في ساحة الشّعْر.

3. معايير سيرورة الشّعْر:

حدّد النّقاد معايير تحقّق سيرورة الشّعْر إذا ارتبطت ببناء الأبيات ومعانيها وصورها، وردت في معرض آرائهم وملاحظاتهم النّقديّة حول أشهر الأبيات وأكثرها تداولاً. وقد اختلفت المعايير وتنوّعت وفق عدّة أسسٍ نبينها فيما يأتي:

1.3 معيار اللفظ والمعنى:

إنّ العناية باللفظ والمعنى من أسس النّظم التي اهتمّ بها النّقاد في تحديد جودة الشّعْر والمفاضلة بين الشعراء، فكانت من أهمّ مرتكزات عمود الشّعْر في أدبنا العربي، والتي تحقّق بدورها سيرورة وشهرته، إذ كانت العرب تتحرّى "شرف المعنى وصحّته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف - ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال وشوارد الأبيات".²⁴ ومنه فإنّ جودة المعنى وبُعده عن الابتذال، وصحّة اللفظ وقوّته مع موافقته للمعنى المُختار له من المعايير المساهمة في كثرة الأبيات الشّاردة والأمثال السائرة من الشّعْر، ولم يقتصر الأمر على اللفظ والمعنى فقط، بل نجد أنّ الإصابة في الوصف من شروط سيرورة الشّعْر، حيث تقتضي "الدّكاء وحُسْن التّمييز"²⁵ في اختيار الألفاظ الملائمة للتعبير عن الموضوع الذي يتناوله الشّاعر كوصف المعاناة من فراق الحبيب، والوقوف على الطّلل وتذكّار الأحبة، وتعداد صفات الممدوح والمحبوب... وهذا لا يقوم إلاّ بحسن تخيّر الألفاظ الملائمة للمعاني.

وقد احتفى النقاد بالأبيات التي توفرت فيها هذه الشروط، فأورد المبرّد- (ت285هـ)- في كتابه (الكامل) باباً "من كلام العرب"²⁶ تضمّن أبياتاً اتّصفت بوضوح المعنى وقرب المأخذ وأنها كلام واضح وقول عذب²⁷، كقول الفرزدق²⁸:

وَالشَّيْبُ يَنْهَضُ فِي السَّوَادِ كَأَنَّهُ * لَيْلٌ يَصِيحُ بِجَانِبَيْهِ نَهَارَ

ومن جانب آخر نجد أبياتاً مستغنيةً بنفسها، وهي التي لا تحتاج إلى أبيات تليها لتتّمع معناها، فهي تامة مستقلة بذاتها، وقد عُرِفَت بالبيت المقلّد_ كما سبق ذكره_ وقد تأتي هذه الأبيات مستقلة عن سابقتها أو لاحتقتها، كما يمكن أن ينفصل جزء منها ويبقى معناها تامّة الفائدة، ومن أمثلتها قول طرفة²⁹:

سَتُبْدِي لَكَ الْآيَامَ مَا كُنْتَ جَاهِلًا * وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَا لَمْ تَزُودْ

وقول الحطيئة³⁰:

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يُعَدُّمَ جَوَازِيَهُ * لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ

كما يُعدّ الإيجاز في المعنى بأيسر وأجود اللفظ أساساً مهماً في سيرة الأبيات، حيث إنّ "أسهل الشعر حفظاً ما يُفهم في ابتدائه مراد قائله، وما كان قليله يغني عن كثيره لإيضاح دلالاته"³¹ فيكون أخفّ على ذهن السامع حفظاً وتداولاً.

2.3 معيار الصورة:

يعمد الشاعر إلى الوصف والتشبيه للتعبير عن أحاسيسه ومشاعره، وفي سرد مغامراته ورحلاته، ومدح الممدوح والتعزّل بالحبیب... وغير ذلك ممّا يخدم موضوعه؛ فلا يخلُ أيّ غرضٍ شعريٍّ من صورةٍ فنيّةٍ تُجسّد لخيال القارئ ما يعبر عنه الشاعر. وتتفاوت جودة الصورة في الشعر بين الإصابة والمقاربة، ممّا يجعل الأبيات تتفاوت في الحُسن والرّداءة، ومن هنا فقد اهتمّ النقاد العرب بهذه الأسس في تحديد جودة البيت والمفاضلة بينه وبين غيره، وتحديد شهرته، إذ جعل المرزوقي

معيّار "الإصابة في الوصف"³² _ كما تقدّم _ سببا في ثبوت البيت في الأذهان وتعلّق الأسماع والقلوب به، فيكون عاملا في تقدّم الأبيات وسيورتها.

وأورد المبرّد بابا لـ "بعض ما مرّ للعرب من التشبيه، وللمحدثين من بعدهم"³³ ضمّنه أحسن ما جاء في الأشعار من التشبيه، وركّز على بيان ما يُستحسن ويستجد منها، أولها "تشبيه شيء في حالتين مختلفتين بشيئين في بيت واحد"³⁴ لما فيها من إيجاز معنى ووضوح صورة، وقد اختار قول امرئ القيس:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابَسًا * لَدَى وَكْرَهَا الْعُنَابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي

كما اهتم بأشهر الأبيات التي جمعت أحسن التشبيه، فوصفها بالعجيب ومن ذلك قول ذي الرُّمّة:³⁵

وَرَدْتُ اعْتِسَافًا وَالثُّرَيَّا كَأَنَّهَا * عَلَى قِمَةِ الرَّاسِ ابْنُ مَاءٍ مُحَلَّقٍ

نرى أنّ اختيار المبرّد بعض الأبيات دون غيرها لجودتها وتفقّ أصحابها في تصوير المعنى وصفا وتشبيهاً، ممّا يجعل لها الأسبقية في الاستشهاد والحفظ. ومن الشروط التي تتبعها العرب في المفاضلة بين الشعراء واستجادة أبيات دون غيرها "المقاربة في التشبيه"³⁶، أي قوّة الشّبّه ووضوحه وقُربهِ بين طرفي التشبيه، وهذا الأمر عائد إلى فطنة الشاعر التي يستطيع التّمييز من خلالها بين الصّفات المشتركة فيظهر وجه الشّبّه واضحا لا غموض فيه. فكان النّقاد العرب يستحسنون التشبيه القريب من الحقيقة، والوصف القويّ الدّالّ عليها. يقول المبرّد "وأحسن الشّعْر ما قارب فيه القائل إذا شَبّه، وأحسن منه ما أصاب فيه الحقيقة، ونَبّه بفطنته على ما يخفى عن غيره، وساقه بوصف قويّ واختصار قريب"³⁷ ومن أمثلة ذلك قول قيس بن معاذ:³⁸

وَأَخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الْجُلُوسِ لِعَلَّنِي * أَحَدْتُ عَنْكَ النَّفْسَ فِي السَّرِّ خَالِيَا

وَأِلَّيَّ لَأَسْتَعْشِي وَمَا بِي نَعْسَةٌ * لَعَلَّ خَيَالًا مِنْكَ يَلْقَى خِيَالِيَا

3.3 معيار التّضمين:

إنّ التَّمثُّل والاستشهاد بالأبيات الشعريّة الجيّدة المشهورة من خصائص كتب العربيّة بمختلف علومها، حيث تواترت عديد الأبيات ضمن تلك المؤلّفات، التي أشار إليها مؤلفوها ضمن ترجمتهم للشّعراء أو حديثهم عن أجود الأشعار وأحسنها ضمن غرض أو موضوع معيّن، فقد اهتمّ ابن قتيبة في 'الشعر والشعراء' بالأبيات السائرة وأدرج في تراجمه للشّعراء أبياتاً يُتمثّل بها من أشعارهم³⁹، ومن بينها قول امرئ القيس⁴⁰:

وقاهم جدّهم ببني أبيهم * وبالأشقيين ما كان العقابُ

وقول زهير بن أبي سلمى:⁴¹

وهل يُنبِتُ الخطيئِ إلّا وشيجهُ * وتُغرسُ إلّا في معادنِها النخلُ

ونجد أبيات الحكمة والمثل، التي تتضمّن أقوالاً وأمثالا مأثورة عند العرب أو حكماً استخلصها الشاعر من تجاربه في الحياة، فتُحفظ وتداولها الشّفاء، وترد متواترة في بطون المصادر استشهداً بها واحتفاءً بمضمونها، قال الجاحظ: "ولم أر غاية رواة الأخبار إلّا كل شعر فيه الشّاهد والمثل"⁴²، ويتابعه ابن رشيّق في جعل المثل عنصراً هاماً و أساسياً في البيت ليكون سائراً فيقول: "وللمثل إنّما وزن في الشعر ليكون أشرد له، وأحقّ للتّطّيق به"⁴³، أي أنه إذا توفر في البيت الشعري (مثلٌ أو حكمة) كان ذلك سبباً في سيروته، ومنها قول الخطيئة⁴⁴:

من يفعل الخير لا يعدم جواريه * لا يذهبُ العرفُ بين الله والنّاسِ

وقول عبيد بن الأبرص:⁴⁵

الخيرُ يبقى وإنّ طالَ الزّمانُ بهِ * والشرُّ أخبثُ ما أوعيت من زادِ

ويُعزّز أهميّة هذا المعيار في سيروّة الشعر اهتمام ابن فارس بهذا النوع من أبيات التّضمين في رسالته (أبيات الاستشهاد)⁴⁶ إذ اختار أبياتاً تتضمّن الحكمة

والمثل، وأورد لها المناسبات التي يمكن للقارئ فيها الاستشهاد بها؛ دعماً لرأيه أو إيضاحاً لموقفه.

كما يُمكن أن تأتي الأبيات السائرة أنصافاً (صدر بيت أو عجزه) فقد يُحتاج إلى نصفه أو رُبعه فقط، إذا تضمّن حكمة أو فائدة تصلح بذلك للاستشهاد والتّمثيل، ومن ذلك ما جمعه المُبرّد في رسالته (أعجاز أبيات تُغني في التّمثيل عن صدورها)⁴⁷ أورد فيها عديد الشواهد التي تصلح للتّمثيل وهي مشهورة لشعراء العرب في مختلف العصور.

4. أبيات النَّابغة الذّبياني السائرة:

النّابغة الذّبياني شاعر جاهليّ، صاحب المعلّقة السّابعة ضمن المعلقات العشر، وهو أحد شعراء الطّبقة الأولى من الجاهليين، عُرف بكونه شاعر بلاط النّعمان بن المنذر، ونديمه الذي تمتّع بعطاياه إلى أن فارقه بفعل الوشاية، فلجأ إلى غريمه من الغساسنة لكنّ شوقه إليه لم ينقطع واعتذاراته شاهدة على قوّة العلاقة بينه وبين ملك المناذرة. تميّز شعره بالطّبع والبُعد عن التّكلف، فسارت قصائده وأبيات كثيرة منها وحُفظت لئُستشهد بها في كتب الأدب والبلاغة والنّقد وغيرها. وفيما يلي: نأتي إلى بعض من شعره المشهور الذي حفظه الرّواة ووثّقته مصادر اللّغة والأدب مع بيان معايير سيرورتها وشهرتها دون غيرها.

وصف عديد النّقاد أبياتاً مشهورة للنّابغة بالجودة، اختلف ورودها وفق الموضوع المُراد التّمثّل بها فيه، فأورد ابن قتيبة في معرض ترجمته للشّاعر أبياتاً "من جيّد شعره ومما يُستجاد له" ضمن مواضيع متنوّعة، فاختر منها قوله⁴⁸:

فَلَسْتُ بِمُسْتَبَقٍ أَحَا لَا تَلْمَهُ * عَلَى شَعَثِ أَيِّ الرِّجَالِ الْمُهْذَبُ

وقوله أيضاً⁴⁹:

تُكَلِّفُنِي أَنْ يَفْعَلَ الدَّهْرُ هَمَّهَا * وَهَلْ وَجَدْتَ قَبْلِي عَلَى الدَّهْرِ قَادِرًا

ويرجع تفضيل هذه الأبيات على غيرها وفق معايير جعلتها تتفوق عن أبيات آخر للشاعر نفسه، فهي أجود وأشهر في نظر الناقد من غيرها لفظاً ومعنى، ويضيف أحياناً يرى تفوقها وجودتها في معانٍ متنوعة، فيقول: "وقال النابغة في العفة، وهو أحسن ما قيل فيه"⁵⁰:

رِقَاقُ النَّعَالِ طَيِّبٌ حُجْرَاتُهُمْ * يُحْيُونَ بِالرِّيحَانِ يَوْمَ السَّبَاسِبِ

وفي صفة المرأة يُستجاد له قوله⁵¹:

نَظَرْتُ إِلَيْكَ بِحَاجَةٍ لَمْ تَقْضِهَا * نَظَرَ السَّقِيمِ إِلَى وُجُوهِ الْعُودِ

إنَّ اختيار ابن قتيبة لهذه الأبيات ووصفها له الجودة راجع إلى عناية الناقد بأسس عمود الشعر (جزالة اللفظ واستقامته وصحة المعنى وشرفه) والتي تخول البيت لأن يُستجاد بإجماع الرواة وتمحيص النقاد له وتذوق أهل الأدب والشعر لمعناه وألفاظه بالنظر إلى الأبيات المشابهة له سواء للشاعر نفسه أو مقارنة بغيره، فيجد التفوق من خلال معيار اللفظ والمعنى.

وأشهر أبيات النابغة السائرة في وصف الليل والتي لم يُشاركه أحد فيها، قوله:

فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي * وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُتَنَائِي عَنْكَ وَاسِعٌ⁵²

حاز هذا البيت سيرورة في كتب الأدب العربي ونقده، وقد تداولته المصادر وانتقلت على وصفه بـ"أعجب التشبيه"⁵³ و "معنى لم يُسبق إليه"⁵⁴، إضافة إلى قوله:

خَطَاطِيفُ حُجْنٍ فِي حِبَالٍ مَتِينَةٍ * تَمُدُّ بِهَا أَيْدٍ إِلَيْكَ نَوَازِعٌ⁵⁵

وقوله: فَإِنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبٌ * إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوَكِبٌ⁵⁶

إنَّ جودة الوصف في هذه الأبيات والسبق إلى الصورة فيها جعلها من أبيات النابغة السائرة، حيث لم ينازعه فيه أحد من بعد، فحافظت هذه الأبيات على شهرتها وسيورتها بين الرواة والنقاد.

وقد اختار أبو العباس ثعلب أبياتاً لأشهر شعراء العرب ووصفها بالأبيات (الغُر) وهي عنده "ما نجم من صدر البيت بتمام معناه، دون عجزه، وكان لو طُرح آخره لأغنى أوله بوضوح دلالاته... فأخفُ الكلام على الناطق مؤنة وأسهله على السامع محملاً ما فهم عن ابتدائه مُراد قائله، وأبان قليله، ووضح دليله"⁵⁷، فالعرب تمدح الإيجاز ووضوح المعنى، فذكر للنابغة قوله⁵⁸:

فإنَّكَ كاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي * وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُنتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ

ومن أهم المعايير التي تجعل الشعر سائراً مشهوراً تضمّنه المثل والحكمة؛ ممّا يجعل حفظه وتداوله بين الناس سهلاً ميسراً، ومن ذلك ما أورده ابن فارس في رسالته (أبيات الاستشهاد)، فذكر ممّا يُنشد للنابغة⁵⁹:

في ترحال الرّفيق:

لا مرحباً بعِدٍ ولا أهلاً به * إِنْ كَانَ تَرْحَالُ الْأَحْبَةِ فِي عَدٍ

في العتاب على الخطأ والزّلل:

ولست بمُستَبِقٍ أَخَا لَا تَلْمَه * عَلَى شَعَثِ أَيِّ الرِّجَالِ الْمُهْدَبِ

المبالغة في الثّناء على الملوك:

وأنّك شمسٌ والملوك كواكب * إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

في الاتهام بالذنب دون صحّة:

وحملتني ذنب امرئ وتركتهُ * كَذِي الغُرّ يُكوى غيره وهو راتعُ

ونجد في السياق نفسه من الأبيات ما يصلح جزءاً منها للاستشهاد به، نظراً لما يحتويه من حكمة وفائدة، وقد قال حماد الزاوية في شعر النابغة حين سئل عن سبب تقدّمه على غيره فقال: "باكتفائك بالبيت الواحد من شعره، لا بل بنصف بيت، لا بل بربع بيت"⁶⁰، إنّ هذا القول يجمع معايير جودة المعنى واللفظ من جهة كون تلك الأبيات وأنصافها موجزة تامّة الفائدة، إضافة إلى تضمّنها الحكمة والمثل

مما يحوّلها أن تكون صالحة للاستشهاد، فيجعل للشاعر أفضليّة وأسبقية في تقدّم شعره وسيروورته، وقد مثّل حماد لهذه الميزة في شعر النّابغة بقوله عن هذا البيت:

"حلفتُ فلم أتركْ لنفسِك ريبَةً * وليس وراءِ الله للمرءِ مذهبُ

كلّ نصفٍ يُغنيك عن صاحبه.⁶¹ أي أنّ كل نصف من هذا البيت يُغني

بدوره في التّمثيل والتّعني به عن صاحبه.

وقد وردت أنصاف أبيات للنابغة في رسالة المبرّد في (أعجاز أبيات تغني في التّمثيل عن صدورها)، والواضح من عنوان الرسالة أنّ المصنّف اختصّها بأعجاز الأبيات السّائرة التي تصلح للاستشهاد لما تتضمنه من تمام معنى وإيجاز لفظ وعمق فائدة، يستعين بها المتكلّم في مواقف قد تستدعي الإيجاز واللّمة الدّالة دون الإطالة والإطناب، فجاءت للنّابغة على النّحو التّالي⁶²:

* ولا قرّارَ على زارٍ من الأسدِ *

* وذلك من تلقاءِ نفسك رائعُ *

* إذا فلا بسطتُ سوطي إليّ يدي *

* وليس وراءِ الله للمرءِ مذهبُ *

* لمبلُغك الواشي أعشّ وأكذبُ *

* ولكنّ ما وراءك يا عصامُ *

* وهل ياتمنّ ذو إمّةٍ وهو طائعُ *

* سبقَ الجوادِ إذا استولى على الأمدِ *

وتبدو هذه الأعجاز صالحة للتّمثيل في مواقف تتضمن طلب العفو والصفّح

عن الذّنْب، والدّفاع عن النّفس حال الاتّهام بالباطل، فهذه الحالات تستدعي العجلة في الاعتذار وعدم الإطالة حتى لا يملّ صاحب الحقّ، وبالتالي فهي أنصاف أبيات

سهلة الحفظ، سائرة مشهورة. ومن أبياته التي وُصفت بأنها أشبه بالأمثال السائرة⁶³،

قوله: **اليأس عما فات يعقبُ راحةً * ولربَّ مطمعةٍ تعودُ ذباحا**

ومن هنا فإنَّ أبيات النَّابغة التي عرضناها تتَّسم بخصائص جعلتها تتميز عن غيرها من أبياته، وتتجاوز أبيات غيره من الشعراء فحُفظت واشتهرت وبذلك تميَّزت بالسيرورة الشعريَّة.

5. خاتمة:

على ضوء ما قدَّمناه، يمكننا القول إنَّ سيرورة الشعر قضية ذات أهميَّة في تاريخ الأدب والنقد العربي القديم؛ إذ تواترت المصطلحات الدالة على مفهومها من خلال تلك التسميات المختلفة لأبيات السائرة: "البيت المُقلَّد، القلائد، البواقي على الدهر، الطنانة، الأوابد، الشوارد أو الشُّرود، الأفراد." وجميعها تشترك في مفهوم سيرورة الشعر التي تميَّزت بها عديد الأبيات المذكورة في مضان مصادر العربيَّة المختلفة، والتي اشتهرت بين الدارسين والرواة والنَّاس على حدِّ سواء.

تضمَّن الأبيات السائرة خصائص حدَّد النقاد معاييرها ضمن آرائهم، تعلَّقت بجودة اللفظ والمعنى حيث يستقلَّ البيت وينفرد بتمام معناه وجزالة لفظه وإيجازه، إضافة إلى الإصابة في التشبيه والمقاربة في الوصف حتَّى تكون الصُّورة أوضح للمتلقِّي وأقرب لذهنه تصوُّراً فلا تنافسها أبيات أخرى جودةً وحُسنًا. كما تطرَّقنا إلى معيار التضمين الذي يختصُّ بأبيات الشاهد والمثل والحكمة، وهذه الأخيرة تضمن للبيت سهولة الحفظ والتداول وبالتالي السيرورة.

اشتهر النَّابغة كونه أحد فحول الجاهليَّة، وقد تداولت المصادر العربيَّة نقداً وأدباً ولغةً وترجماً أبياتاً وقصائد عديدة من شعره، تضمَّنت تلك الخصائص التي تسمح للشعر بالانتشار والشهرة، من بينها أبيات ذات جودة معنى وجزالة لفظ، وأخرى أحسن وأعجب تشبيهاً ووصفاً، كما لاحظنا اختيار النقاد لأبيات الاستشهاد

والمثل عند النّابغة وقد تمحورت حول مواضيع "العتاب والاعتذار والتّناء والحكمة"، وعليه فإنّ شعر النّابغة قد نال حظّه من الشّهرة نظرًا لتميّزه بهذه المعايير. إنّ سيرورة الشّعْر لا تقتصر على شاعر دون آخر، ومنه فإنّ البحث عن هذه الميزة في أشعار أخرى لشعراء من مختلف العصور الأدبيّة جدير بالتحقيق والدراسة؛ إذ تُحيل الباحثين المهتمّين بالنّقد القديم إلى الغوص في مكونات النّص الشّعريّ.

6. المراجع:

- ¹ - ينظر: ابن منظور. أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، د/ط، دار صادر، بيروت، د/ت: ج4، ص 389.
- ² - ابن فارس. أبو الحسن أحمد بن زكريا، مقاييس اللغة، د/ط، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، د/ت: ج3، ص 120.
- ³ - الجمحي. محمد ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، د/ط، دار الكتب العلميّة، بيروت، 2001م: ص 120.
- ⁴ - ينظر: الحارثي. علي بن محمد بن عبد المحسن، البيت المتقرد في النقد العربي القديم، (رسالة دكتوراه)، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، المملكة العربية السعودية 2001م: ص 220.
- ⁵ - لسان العرب: ج3، ص 367.
- ⁶ - ينظر: ابن المعتز، طبقات الشعراء، ط3، تح: عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، مصر، د/ت: ص 83، 98، 192.
- ⁷ - السيوطي. عبد الرحمن جلال الدين، المزهرة في علوم اللغة وأنواعها، د/ط، شر: محمد أحمد جاد المولى بك وآخرون، المكتبة العصرية، بيروت، 1986م: ج2، ص 491.
- ⁸ - لسان العرب: ج13، ص 268، 269.
- ⁹ - الزمخشري. أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد، أساس البلاغة، ط1، تح: محمد باسل عيون السود، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1998م: ج1، ص 615.

- 10 - نفسه.
- 11 - ينظر: الجاحظ. أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، ط7، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1998م: ج2، ص09.
- 12 - ينظر نفسه: ج2، ص186.
- 13 - ينظر نفسه: ج1، ص206.
- 14 - أساس البلاغة: ج1، ص17.
- 15 - لسان العرب: ج3، ص68.
- 16 - ابن رشيقي القيرواني. أبو علي الحسن، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ط5، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، سوريا، 1981م: ج2، ص185.
- 17 - مزرد بن ضرار: الغطفاني اسمه يزيد. وهو أخو الشماخ بن ضرار، ولُقّب مزردا ببيت قاله، له أشعار وشهرة وكان هجاء خبيث اللسان، حلف لا ينزل به ضيف إلا هجاه، أدرك الإسلام فأسلم. ينظر: المزياني. ط1، معجم الشعراء، تح: اسليم فاروق، دار صادر، بيروت، 2005م: ص559.
- 18 - المفضل الضبي، المفضليات، ط6، تح: أحمد محمد شاكر. عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، د/ت: ص100.
- 19 - ينظر: لسان العرب: (شرد) ج3، ص237، (غير) ج4، ص622.
- 20 - العمدة: ج1، ص280.
- 21 - الصاوي. محمد اسماعيل، شرح ديوان جرير، ط1، مطبعة الصاوي، مصر، د/ت: ص369.
- 22 - القاضي الجرجاني. علي بن عبد العزيز، الوساطة بين المتبني وخصومه، د/ط، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1966م: ص159.
- 23 - نفسه: ص160.
- 24 - المرزوقي. أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن، شرح ديوان الحماسة، ط1، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2003م: ص10.
- 25 - نفسه: ص11.

- 26 - المبرّد. أبو العباس محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، د/ط، تح: عبد الحميد هنداوي، إصدارات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، د.ت: ج 1، ص77.
- 27 - ينظر نفسه: ج 1، ص79.
- 28 -الكامل: ج 1، ص79.
- 29 - ثعلب. أبو العباس أحمد، قواعد الشعر، ط1، شر: محمد عبد المنعم خفاجي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1996م: ص 47.
- 30 - نفسه: ص 48 .
- 31 - ينظر نفسه: ص50.
- 32 - المرزوقي، شرح ديوان الحماسة: ص 10.
- 33- الكامل: ج 2، ص338 .
- 34- ينظر نفسه.
- 35- ينظر: نفسه: ج 2، ص339 .
- 36 - ينظر الوساطة: ص33.
- 37 - الكامل: ج1، ص355.
- 38 - نفسه. / قيس بن معاذ: هو مجنون ليلي بنت مهدي أم مالك العامرية الربعية. وهو من بني عامر بن صعصعة. ينظر: الذهبي. شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ط1، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003م: ج 2، ص700.
- 39 - ينظر: ابن قتيبة. الشعر والشعراء، ط2، تح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، د/ت: (على سبيل المثال) ج1، ص 112، 140، 160، 162، 184، 187.
- 40 - نفسه: ج1، ص 112.
- 41 - نفسه: ج1، ص140.
- 42 - البيان والتبيين: ج4، ص24.
- 43 - العمدة: ج 1، ص282.
- 44 - نفسه: ج 1، ص283.
- 45 - العمدة: ج1، ص283.

- 46 - ابن فارس، أبيات الاستشهاد. نُشِرت ضمن: نواذر المخطوطات، د/ط، جم وتح: عبد السلام محمد هارون، ج1، مج2، د/ب، د/ت: ص137_161.
- 47 - المبرد، رسالة في أعجاز أبيات تُغني في التمثيل عن صدورها، د/ط، نُشرت ضمن نواذر المخطوطات، جم وتح: عبد السلام محمد هارون، ج1، مج2، د/ب، د/ت: ص163-173.
- 48 - يُنظر: الشعر والشعراء: ج 1، ص172.
- 49 - نفسه: ج 1، ص173.
- 50 - نفسه: ج 1، ص163.
- 51 - ينظر نفسه: ج 1، ص172.
- 52 - ديوان النّابغة الذّبياني، تح وجم وشر: محمد الطّاهر بن عاشور، ط1، دار السّلام للطباعة والتّوزيع والترجمة/ دار سحنون للنشر والتّوزيع، مصر/ تونس، 2009م: ص 168.
- 53 - ينظر: الكامل: ج 2، ص339.
- 54 - الشعر والشعراء: ج 1، ص171. / - ابن المعتز: طبقات الشعراء: ص 404، 405
- 55 - ديوان النّابغة: ص 168.
- 56 - المصدر نفسه: ص56.
- 57 - يُنظر: قواعد الشعر: ص 50.
- 58 - نفسه: ص51.
- 59- يُنظر: أبيات الاستشهاد: ص 141، 145، 150، 151.
- 60 - الأصفهاني. أبو الفرج علي بن الحسين، الأغاني، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، 1994م: ج11، ص05.
- 61 - الأغاني: ج 11، ص05.
- 62 - ينظر: رسالة في أعجاز أبيات تغني في التمثيل عن صدورها: ص165، 166.
- 63 - يُنظر: قواعد الشعر: ص46.

*** ** *